الفصل الثامن

التعاطي السياسي
ما بين المعرفة والانفعال

تمهيد

ما بين المعرفة الواعية، والمعرفة المؤدلجة تضيع الحقائق وتضطرب المشاعر وكذلك الأفكار، من دواعي كتابتي بهذا الموضوع، ما ألمسه وأستنتجه من اختلاط الأوراق الذي بات واضحاً في التعامل مع مشكلة واقعنا السّوري السياسية خلال السنوات الأخيرة، والتي أوصلتنا إلى حد الهلوسة ببعض الأصوات والتصريحات التي لا تكل ولا تمل من إعطاء تفسيرات، وإبداء خطط واقتراح مبادرات... وما بين هذا وذاك على أرض الواقع، هو عدّ للشّهداء من الضّحايا المدنيين وحتى العسكريين الأبرياء أيضاً، وترقيم المدن والبلدات المنكوبة، إذ في كل وقت تطالعنا التقارير والصور التي تجعل مخيلتنا لا تقدر على تصور حجم نكبة بلدنا الإنسانية والعمرانية. من هنا بات ضرورة التمييز بين نوعي المعرفة التي تحكمنا: وتحديد أين نحن من كلٍّ منها.

للخوض بهذا المبحث، لا بدّ من توضيح المفاهيم التالية:

– ما أرغب في البدء بالحديث حوله هو: "المعرفة الواعية المعتمدة على المنهج العلمي" التي نفتقدها في معطى تعاملاتنا والأشد خطورة لها، إغفالها في تنشئتنا للأطفال، ونحن في القرن الحادي والعشرين عصر العلم والمعرفة التي تنهال علينا من كل صوب، ونحن نغض عنها النظر، ونحيد عنها السمع، ونؤثر الطاعة...

ولكن هل باتت الطاعة للجهل بدواعي ملحة من خوفنا على حياتنا، هو ما ننجذب له مؤخراً، ونخاف الانعتاق منه؟

حقيقة لست من هواة الحديث المتشائم، ولست من دعاة الحديث النّظري بعيداً عن الواقع، ولكن هذا المبحث الذي يسيطر على ذهني مؤخراً، هو بحد ذاته مدعاة لليأس من هول المصاب الذي نقف عليه، ونسير عبره.

التّعريف بالمعرفة الواعية والمعرفة المؤدلجة

1- المعرفة الواعية: تتمثل بأنها معرفة فاعلة، تغير وتبدل وتؤثر وتتأثر، لذلك فإن النّموذج الواعي، لا يرتبك إزاء التحولات والتبدلات، إنما يستطيع أن يحافظ على توازنه، ليقيم الأوضاع تقييماً سليماً... ولما كان الوعي متصلاً بالمنهجية للوصول إلى الحقيقة، كان وفقاً لذلك المنهج العلمي، هو أداتنا للوصول إلى المعرفة، يعني ذلك أننا لا بدّ أن ننتهج المعطيات التي نجمعها من خلال حواسنا، وذلك من خلال قربنا من المحيط، الذي يسعى إلى المعرفة الواعية حول ذلك الأمر، الذي يستدعي منا ضرورة البحث والتقصي، في سبيل مقاربة الحقائق العلمية وتطوير مناهج البحث والكشف والاستكشاف، وتأصيل وعقلنة المقاييس والأحكام، ليكون أكثر دقة وأكثر قدرة على تشخيص الحقائق، وبانتهاجنا للمعرفة الواعية، نكون أكثر قدرة على الاستمرار والتألق، والأهم أننا نكون أكثر مصداقية مع أنفسنا والآخرين، حيث طريق المنهج العلمي في التفكير للوصول إلى الحقائق تعتمد المواجهة، وليس الهروب وتحوير المعطيات وتأويلها لحساب طرف دون آخر، حيث من يتبع هذه الطريقة في المعرفة، يتقبل ويجهد للنّهوض بواقع الحال، في حال سوء المآل... ليبقى يسعى بدون كلل، وغير مقتنع بالصدفة إلّا كحجة لعدم اكتمال الأسباب، ومن كون النموذج الواعي للمعرفة مرتهن بمنهجه، الذي يتطور بدوره ليتواصل مع العلم، ويفتح كل سبل التواصل، غير هيّاب ولا خائف.

ولغته موحدة متجانسة صريحة، متوافقة منسجمة يستطيع التواصل من خلالها بسهولة، حيث من خلال اعتمادنا المنهج العلمي في معرفة الحقيقة، يمكننا كشف مثالبنا قبل مثالب الآخرين، كما يساعد هذا المنهج في التفكير على تأصيل

ما لدينا من صفات، إذ يجعلنا بذلك نضيف علم الآخرين إلى علمنا، فنأخذ ما نراه مناسباً عبر تحولات منطقية واضحة مدعومة بالدلائل والبراهين، ومبنية على المعطيات العلمية في اتساعهما المستمر...

2- المعرفة المؤدلجة: تتسم بالانفعال حين التعاطي مع الموروث العلمي، وبذلك تعيش المعرفة المؤدلجة مع مخاوف وهواجس تجاه المعرفة، بحيث تحرم من يتبعها من اتخاذ تدابير متوازنة، وبذلك تكون المعرفة هذه من كونها انفعالية لا تميز الأفراد، ولا المجتمعات بل تبقى أسيرة أسس وقواعد تؤطر رؤيتها، فالتفكير الإيديولوجي هو نوع من التثبيط الفكري، لأنه يتعاطى مع العلم ضمن قيود وظروف ومصالح آنية، حيث إن الإيديولوجيا ورغم أنها تنطلق من نظرة عقلانية تتبع العقل عند تأسيسها، فإن النّموذج المؤدلج مهما اتسعت معارفه لا يستطيع الخروج من ضيق أفقه، لأنه يحيل هذه المعارف إلى مقاييس، وأحكام ثابتة وفق ما يعرف بالسياسية بطريقة "بروكوست".

"بروكوست" هو شخصية أسطورية، كان من قطاع الطرق، ففي حال كان ظفر بضحيته مددها على السّرير، فإذا كانت أقصر منه مطّها حتى تصبح بطول السّرير، وإن كانت الضّحية أطول من السّرير قصها، فتزهق روح الضّحية في كلتا الحالتين، إلّا إن كان بطول السّرير نجا من شر "بروكوست"...

وبذلك فإن المعرفة المؤدلجة تكون دائماً في مواجهة محمومة مع كل ما يعارضها حتى لو كان علماً، لأن دأبها يتحول من تتبع المعرفة والعلم، إلى إخضاع المعرفة والعلم للمعتقدات والفرضيات، التي تكوّن الإيديولوجيا التي يتبعها، بحيث تغدو هذه المعرفة متناقضة باستمرار كلغة حوار، من حيث إنها متزمتة تفضي بحوارها إلى حالة دوغمائية اتكالية تابعة، تجعل متتبعها مرات ينزل إلى الحضيض ليركب مركبها إن هبط، ولا يستطيع رفعه وشده للأعلى...

على حين أن النّموذج الذي يتبع الوعي والمنهجية العلمية يفضي بذلك إلى الإبداع والحضارة، وإلى مدارج السّمو والرفعة والسّعادة، والأهم ما يفضيه من

طمأنينة وعدم عيش التّناقض، وهذا ما كنا نجده واضحاً في أحاديث بعض رجال السّياسة، وكذلك رجال الدّين، الذين يحاولون أدلجة الإسلام رغم أن الإسلام لا يتحمل تبعية من يؤدلجه، تبعاً لمعرفة مسبقة، والمتمعن بعلوم الدّين الإسلامي، وروح الفكر الإسلامي يجد أنها تحث على الاجتهاد، والبحث في آليات الآفاق والأنفس، وتأمل مظاهر الكون وتعليلها تعليلاً وفقاً للقرآن والسّنة...

وهناك آيات قرآنية عدة تدعم ذلك من مثل قوله تعالى: [وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَاب] وقوله تعالى: [إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء] وغيرها وغيرها...

إن مشكلتنا كمهتمين بتطوير السّلوك الحضاري لبلادنا، وكتربويين معنيين بمواكبة المعارف والعلوم وإدراجها في المناهج المقدمة للناشئة، أجد أن دورنا يتجسد بحصر هذه المؤثرات والتّخطيط لكيفية العمل على خلق جيل واعي، من خلال العمل على توجهات مرنة واقعية للتكيف مع ما يعترضنا ووفق معطيات الحياة العصرية، التي لا نقدر على تحييدها، إن كنا لا نريد أن نبقى مغردين خارج الزمن، وفقط نتباكى ونتشاكى لبعضنا من ظلم الزمن والأمم لنا ولقضايانا.

إذ إن الحلول دائماً في حال كبر المصاب، وعمت المشاكل على عينة واسعة من المجتمع المحلي، لا بدّ أن تكون من خلال الاهتمام بالسّياسات التربوية التي تعنى بالإنسان أن غاية الاستثمارات اليوم هو الاستثمار في الموارد البشرية، وهذا ما سمعناه مؤخّراً يردّد ويشدّد عليه في البرامج الانتخابية، لأكبر دول العالم من قبل المرشح الأخير لرئاسة أمريكا، وما لفت انتباهي في خطاب الرئيس الفرنسي "هولاند" قبيل ترشيحه الذي استرعاني الاهتمام بحديثه هذا، إشارته للاهتمام بانتشار اللغة الفرنسية والاهتمام بالنّاطقين بها، والعناية بهم كونهم يمثلون وجه فرنسا الجديدة، من هنا فالتعاطي السياسي اليوم يفترض أن له أجندة عملية مقنعة تحترم العقل ويطمئن لها الفؤاد، وليست مهاترات وتحديات، وإشهار المدافع والقذائف، وإطلاق السُباب والشّتائم.

أما آن الأوان لتغيير هذه المواجهات؟! إلّا أن قناعتي أن هذا لن يتحقق ويعاش ما لم تقم التربية بدورها الفاعل في تنشئة الفرد نشأة واعية، ليكون فرداً واعياً بحقوقه ومن ثم واجباته، ويحمل الآثار الإيجابية للنموذج الواعي، وبنبذ الآثار السّلبية للنّموذج المؤدلج، ومن هنا تجدر الإشارة إلى أن تنوع مصادر تربية الفرد، وتعدد فنونها لا تكون إلّا من خلال نشر الوعي الأكثر دقة والأكثر مسؤولية من قبل مؤسسات المجتمع المدني، والأنظمة الدّيمقراطية الحديثة...

وذلك إدراكاً للخطورة من سيطرة مصدر واحد على التربويين، واستبعاد المآخذ الأخرى من خلال النقل فقط عن ثقافة الآخرين، حيث إن اقتصار الأخذ بالمعرفة المنهجية في التنشئة التّربوية، يشكل عقبة عسيرة أمام طموحاتنا لمجتمع مزدهر منفتح مواكب لمسيرة العلوم، لا أن يبقى زاحفاً وراءها لا يمكن له أن يلتقي به.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن التربية ليست فقط تحصيل معارف وقيم، بل هي بناء لشخصية خلاقة لها المقدرة على تمييز المعارف والقيم، من خلال إخضاعها للمنطق والمحاكمات العقلية، ليتاح لهذه المعرفة المتحصلة أن تثمر وجوداً إبداعياً، عبر مسيرة التاريخ الحديث، وبعيداً عن التنظير.

وهذا لن يكون إلّا من خلال تناسق الفكر والعمل عبر هذه المعرفة الممنهجة للوعي، فارتباط العمل والفكر سمة أساسية من سمات الوعي، وهنا يمكن لنا أن نعيش نعمة العطاء الفكري لا نقمته حسب قول الشّاعر، "القول المكرس في بلدنا" والمردد في كل ضيق... يقول المتنبي:

ذو العقل يشقى في النّعيم بعقله

وأخو الشّقاوة في الجهالة ينعم

من خلال إبرازنا "أن غاية كل ثقافة يتمثل بفتح مسارات الإبداع"، لأن قتل روح الإبداع يعني: عطالة المجتمع وعقمه وعجزه ثم نكوصه، ليصبح بذلك عالة

على غيره، كما هو واقع حالنا اليوم، من هنا فإن النّظر إلى الثّقافة بنظرة شمولية من خلال ربطها بمختلف مجالات العمل والفكر والواقع، بطريقة تكفل للثّقافة تحسنها باستمرار، بالاعتماد على القدرات الذاتية ما أمكن لذلك سبيلاً، لأن التنشئة الفكرية ضرورية للنّهوض من العثرات أو الاستمرار في مسيرتنا بدون عثرات تذكر، حيث إن معظم مشكلاتنا الرّئيسية المتصلة بالسّلوك اليومي، لا يمكن أن تحلّ بواسطة التّكنولوجيا الفيزيائية، والبيولوجيا وحدها، الأمر الذي نحتاجه، وفقاً لعالم النفس السلوكي الأمريكي "سكينر" الذي يوضح رأيه في كتابه تكنولوجيا السلوك، من أننا كنا بطيئين في تطوير العلم الذي يمكن أن تستمد منه مثل هذه التّكنولوجيا، فالعلوم السّلوكية بصورة عامة وعند كل الشّعوب، كانت بطيئة التّغير، بالقياس لعلوم الميكانيكا والعلوم البيولوجية... لأن المكونات التفسيرية كثيراً ما تبدو ملحوظة على نحو مباشر، كما أن للبيئة جانباً كبيراً من الأهمية، ودورها ظل مبهماً أو خفياً، فهي لا ترفع أو تسحب بل تصطفي وتختار، ومن الصعب أن تكتشف هذه الوظيفة وتحلل من حيث أن دور الاصطفاء الطبيعي في التّطور لم تتم صياغته، إلّا منذ ما يزيد قليلاً على مئة عام، الدّور الإصطفائي للبيئة في تشكيل وحفظ سلوك الفرد، لا يمكن أن يتحقق إلّا ببدء مرحلة الاعتراف به من خلال دراسته، وما نجده أنه عندما أصبح التفاعل ما بين الكائن الحي، والبيئة مفهوماً ومعمولاً عليه بكثرة في العصر الحديث، بدأت النتائج التي كانت تعزى إلى حالات الذّهن، وإلى المشاعر والسّمات ترتد إلى تردي الظّروف التي يمكن التّعرف عليها...